

**The Manifestations of the Grammatical Cohesion and its Functions in the
Speeches of Imam Hassan (peace be upon him)
(e.g. Masterpiece Speeches)**

Mahdi Abedi*
Nadya Dadpour**

Abstract:

Imam al-Hasan (peace be upon him) is one of the prominent personalities in Islamic history. This person has contributed greatly to waving the flag of Islam, and has had a great presence in Islamic activities. With sermons full of rhetoric, beauty and dignity, he has driven the Shiite Islamic trend toward the head of government. Textual consistency, with its manifestations and elements, clearly contributes to the presentation of the style of texts and its aesthetic aspects.

Based on this, this research seeks to examine the manifestations and manifestations of syntactic coherence in the masterpieces of Imam Hassan (PBUH) sermons, and reveal the mechanisms and techniques behind it based on the descriptive-analytic approach. The study examines the mechanisms of grammatical coherence in the sermons of Imam (peace be upon him) to remove the effectiveness of communicating the message that is guaranteed by the Imam and the burden of carrying it with a strong chest and a firm will that does not find despair and lack of path.

The research finally concluded that the mechanisms of textual coherence of the links, references and textual displacements of submission, delay, repetition, emphasis, use of emotions, discipleships, deletions, substitutions, and gameplay were all hand in hand to realize the message that the Imam had intended to convey to the people at that time and without such eloquence.

Keywords: Imam al-Hasan (peace be upon him), Speeches, Grammatical Cohesion, Style, Context.

References:

- Bakhula, I., (2016). *Textual Contributions in Arabic Heritage*, PhD thesis, Science in Textual Linguistics, People's Democratic Republic of Algeria, University of Oran, Ahmed Ben Bella.
- Bouhadi, A., (2013). The Impact of Grammar on the Coherence of Text. *Journal of Studies, Humanities and Social Sciences*, 40(1) pp. 54-65.

* Assistant Professor of Arabic Language and Literature, University of Isfahan, Isfahan, Iran (Responsible author) mehdiabedi1359@yahoo.com

** Graduate of Arabic Language and Literature, University of Isfahan, Isfahan, Iran dadynady95@gmail.com, Iran

Received: 20/12/2017

Accepted: 09/12/2018



-
- Al-Hadrawi, I. A., (2007). *The impact of relational evidence in the consistency of text in the approach of rhetoric, war rhetoric model*. Karbala: the threshold of Husseini holy - Institute of Sciences approach Balagha.
 - Hadid, S. & Mary B., (2011). *Semantic Harmony in Surat Maryam, a note prepared to complement the requirements of obtaining a master's degree*. Democratic People's Republic of Algeria, University of Mentori, Constantine.
 - 5- Khetabi, M., (1991). *Linguistic Texts: An Introduction to the Harmony of Discourse, First Edition*. Beirut: The Arab Cultural Center.
 - Sawalha, K., (2011). *Textual consistency in the Office of the Life Songs of Abi Al-Qasim Al-Shabi, A Stylistic Study*, A Research Proposal for the Master's Degree in Arabic Language, Supervising: Abdul Salam Deif, University 2010-2011.
 - Abdel-Kareem, J., (2007). The Concept of Coherence and its Importance in Textual Studies, *Alamat Journal*, (61). (Mg 16).
 - Afifi, A., (2001). *Towards the Text: A New Direction in Grammar Lesson*. Cairo: Zahra Al Sharq Library.
 - Allawi, A. E., (2011). Grammar cohesion forms and mechanisms, an applied study of models of poetry of Mohammed Al-Eid Al-Khalifa, *Hgaraat Journal*.
 - Mousawi, M., (1975). *The masterpieces chosen from the speeches of Imam Hassan* (p). (Review and Commentary: Mr. Morteza Radawi). Beirut: Dar Al-Maalem lettebaah.
 - Alweddae, I. J. M. F., (2005). *Textual consistency* (applied study in the approach of rhetoric), this thesis was submitted to complement the requirements of obtaining a PhD in Arabic Language and Literature, Faculty of Graduate Studies, University of Jordan.

Websites:

- Arab Translation Society and Dialogue of Cultures:
- www.atida.org/index.php?option=com_content&view=article&id
- <https://ar.wikipedia.org/wiki/tamamhassan>.
- University of Petra
- <https://www.uop.edu.jo/ar/Pages/MemberDetails.aspx?ItemID=1196>
- <https://www.goodreads.com/author/show/6548292>.
- <http://dspace.univ-biskra.dz:8080/jspui/handle/123456789/3712>.

مظاهر التماسك النحوي ووظائفه في خطب الإمام الحسن (عليه السلام) روائع الخطب نموذجاً^١

❖ مهدي عابدي

❖❖ ناديا دادبور

الملخص

الإمام الحسن (عليه السلام) من الشخصيات الفذة في تاريخ الإسلام. وقد أسهمت هذه الشخصية إسهاماً لا نكران له في تشييد راية الإسلام. فقد كان له حضور بارز في النشاطات الإسلامية، حيث يُخطبه المُفعمّة بالبلاغة والروعة والاتزان، عمل على توجيه التيار الإسلامي الشيعي نحو الهدى والرشاد. والتماسك النصي بمظهره يساعد بشكل صريح على إبراز بلاغة النصوص وجمالياتها. انطلاقاً من هذا، يستهدف البحث دراسة مظاهر التماسك النحوي في روائع خطب الإمام الحسن والكشف عما توارى وراء النصّ من آليات وفنون بديعة على أساس المنهج الوصفي - التحليلي. فراح يدرس البحث آليات التماسك النحوي في خطب الإمام ليكشف الستار عن فاعليتها في إبلاغ الرسالة التي تكفلها وراح يتجسّم الإمام عناء حملها بصدرٍ رحب وإرادة صارمة لا يجد اليأس والفتور إليها سبيلاً. وخلص البحث أخيراً إلى أنّ آليات التماسك النصي من الروابط والإحالات والإنزياحات النصّية من التقديم والتأخير والتكرار والتوكيد واستخدام العواطف والتوابع والحذوف والاستبدالات واللعب الضمائري كلّها قد تعاونت لتحقيق الرسالة التي كان ينوي الإمام إبلاغها إلى الناس تلك الآونة. ولولا هذه البلاغة ولولا هذا التماسك لضاع الكثير من المقصدية التي كانت تتطلبها تلك الرسالة.

المفردات الرئيسية: الإمام الحسن (عليه السلام)، الخطب، التماسك النحوي، السبك، الحيك

١- تاريخ التسلم: ١٣٩٦/٩/٢٩هـ. ش؛ تاريخ القبول: ١٣٩٧/٩/١٨هـ. ش.

❖ أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة أصفهان (الكاتب المسؤول)

❖❖ حاصلة على الدكتوراه في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة أصفهان

١- المقدمة

التماسك النصي من أهمّ القضايا التي طرحت في ساحة اللسانيات الحديثة ، وخاصة فيما يطلق عليه نحو النصّ. ومعالجة آليات تماسك النص وانضمام مفاصله مما يفتح بُعداً قرائياً مستجداً أمام القارئ ويوصله إلى إدراك إعجاز النصّ ككلّ متوحد. يترعّ التماسك النحوي في زاوية مجنّحة من هذه الدراسات ، وهو يتجند بتقنيات فاخرة تعمل على تأنيق النص وتشحيد دلالاته في إطارين : الإطار الداخلي والإطار الخارجي. والإطار الداخلي في هذه الرؤية تكون حكرّاً على العادات النصية التي تظهر على البنية السطحية للنص ، منها الإحالة ، والافتقار ، والاختصاص ، والعطف وسائر الأساليب التي تسبح على سطح النص وتؤمّن انسجامه ؛ أمّا الإطار الخارجي فيتجلّى في المظاهر الدلالية التي تنتج عن شتى تقنيات الخطاب.

هنالك خطب الإمام الحسن (عليه السلام) تحتوي على رسالات أدبية مفاهيمية إرشادية قيّمة ؛ إلا أنّها بقيت مغمورة لدى الكمّ الهائل من دارسي النصوص الذين يعتنون بكشف مكامن الكنوز في الأعمال الفاخرة. بذلك ، أن دراسة التماسك النحوي وآلياته في خطب الإمام الحسن وإزاحة الستار عن المفاهيم المركزيّة التي تحملها هذه الخطب الروائع ، تبين ضرورة هذا البحث المتواضع الذي يدفع المتلقّي إلى التفكير في صميم الرسالة التي أراد الإمام (عليه السلام) توجيهها إلى الناس.

مهما يكن من أمر ، فتروم هذه الدراسة إحداث رؤية قراءاتية مغايرة في تلقي النصوص واستلام الخطابات ، وذلك بالكشف عن فاعلية الآليات النصية التي تخلق أفضيّة دلالية متلاحقة في جميع خطب الإمام الحسن والتي كوّنت بظلالها الوارفة وثمارها المتنوعة نصّاً موحدّاً. وأمّا المنهج الذي اختاره البحث فهو المنهج التوصيفي - التحليلي بداية يعرف ظاهرة التماسك وآلياتها ، ثمّ يقوم بالبحث عن هذه الآليات وفعاليتها في روائع خطب الإمام الحسن عليه السلام.

٢- أسئلة البحث

الأسئلة التي راح البحث الإجابة عنها تتلخّص فيما يلي :

- ما هي أبرز آليات التماسك النحوي في روائع خطب الإمام الحسن؟

- ما هي كميّات فاعلية آليات التماسك النحوي وملاحمها الدلالية في خطب الإمام الحسن؟

٣- إبداعات البحث

رغم الدراسات العديدة التي جنحت نحو دراسة التماسك النصي ؛ إلا أنّ هذه الدراسة المتواضعة تتميز من جهتين : الأوّل أنها تحدّق في الجانب النحوي من دون المستويات الأخرى المتواجدة في التماسك النصي ؛ أمّا الجهة الثانية من الإبداع فتأتي من انتقاء النصّ ، لأنّ خطب الإمام الحسن قلّما صارت محطة العناية لدرس الدارسين ونقطة اهتمام المعالجين.

٤- خلفية البحث

تسبق هذه الدراسة دراسات عديدة أهمّها هاهي :

مقالة العيد علاوي المعنونة بـ "التماسك النحوي أشكاله وآلياته؛ دراسة تطبيقية لنماذج من شعر محمد العيد آل خليفة". وقد درس فيه الباحث نماذج من شعر محمد العيد آل خليفة كتمثّل للأدب الجزائري وركّز جُلّ همّه على معالجة القضايا النصية فيما درسه وتوصّل إلى أنّ هذا النتاج الأدبي نتاج لغوي رصين غير مزعزع البناء. ورسالة جامعية للطالبتين سمية حديد ومريم بوشمال، بعنوان "الانسجام الدلالي في سورة مريم". وقد درست فيه الباحثان مظاهر الانسجام الدلالي في سورة مريم وبيّنتا أبرز العناصر التي لها النصيب الأوفر في تحقيق التماسك النصي وانسجامه في نطاق موسّع. وهناك أطروحة جامعية أخرى درست "التماسك النصي في نهج البلاغة". وهي من إعداد الطالب عيسى جواد فضل محمد الوداعي وهي معنونة بـ "التماسك النصي، دراسة تطبيقية في نهج البلاغة" حيث درست شتى التماسكات النصية على مستويات عدّة منها التماسك النصي، والتماسك المعجمي، والتماسك النحوي، والتماسك الدلالي، والتماسك التداولي، ثم طبّقت هذه المستويات على نهج البلاغة.

٥. مصطلحات البحث

١.٥- التماسك النحوي

شاهدَ مُصطلح التماسك تذبذباً لفظياً، وقد وظّف بشتى المصطلحات من دون أن تتحد كلمته؛ فشأنه شأن العديد من المصطلحات اللسانية التي ما وجدت لنفسها قراراً بعدما ولجت من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية. فالتماسك «مصطلح مُترجم عن الكلمة الإنجليزية cohesion، وقد وقع في ترجمته بعض الاختلاف كالعادة في عملية انتقال المصطلحات العلمية مترجمة إلى العربية؛ فيترجمه محمد خطابي إلى "الاتساق" في حين يترجمه تمام حسّان إلى "السبك" وترجمه إلهام أبوغزالة وعلي خليل حمد إلى "التصام". أما عمر عطاري^٢

١. محمد خطابي: أستاذ التعليم العالي للمملكة المغربية، متخرّج من جامعة الرباط، فرع اللغة العربية وآدابها وقد عمل في اللسانيات الحديثة وأنجز أعمال غنية؛ منها: كتاب لسانيات النصّ، مدخل إلى إنسجام الخطاب، وكتاب السياسة اللغوية خلفياتها ومقاصدها، والسياسة اللغوية وتعلّم اللغة، السياسة اللغوية والتحديث، والتعليم والحقوق اللغوية، والكثير الكثير من الأعمال التي أخرجها على أحسن ما يكون (www.atida.org).
٢. تمام حسّان: أستاذ جامعي متقاعد وعضو مجمع اللغة العربية بمصر، حصل على الدكتوراه في اللهجة العدينية والمجستير عن لهجة الكرنك، عمل موظفاً في كلية لندن الجامعية. أول من استنبط موازين التنغيم وقواعد النبر في اللغة العربية، وأول عالم لغوي يدرس المعجم باعتباره نظاماً لغوياً متكاملًا، وأول من أعاد تقسيم الكلام العربي على أساس المعنى والمبنى رافضاً التقسيم الثلاثي (اسم، فعل، حرف)، وأول من فرق بين الزمن النحوي والزمن الصرفي. ومن أعماله: اللغة العربية معناها ومبناها، ومناهج البحث في اللغة، واللغة بين المعيارية والوصفية، والخلاصة النحوية، والتمهيد لاكتساب اللغة العربية لغير الناطقين بها، واجتهادات لغوية ومفاهيم ومواقف في اللغة والقرآن، وهناك الغفر الغفير من الإنجازات التي لا يستوعب هذا الموقف (https://ar.wikipedia.org/wiki).

٣. عمر عطاري: أستاذ متخرّج من جامعة جورج تاون في الولايات المتحدة الأمريكية متخصص في اللغة الإنجليزية وآدابها، جلّ أعماله أنجزت باللغة الإنجليزية؛ منها: "The Place of" و "The Adaptations of Texts in Translation: A Blessing or a Threat" و "Translation and Back Translation in an Arab EFL Reading Class" وغيرها من الإنجازات (www.uop.edu.jo).

فترجمه إلى "الترباط". ويترجمه عبد القادر قنيني إلى "الالتئام" (عبد الكريم، ٢٠٠٧ م، ص ٢٠٩). ويمكن القول أن التماسك الدلالي هو المصطلح الدال على ما يعنيه البحث هذا، وهو المحور الأساس الذي يصبح بؤرة مركزية في هذا المضمار. وبشكل عام التماسك الدلالي ذو إطارين: الإطار الداخلي والإطار الخارجي. والتماسك الداخلي يركز في الترابطات النصية التي تضمّن للنص وحدته الدلالية؛ أما التماسك الخارجي فيوجه عدسته نحو العلاقات المتواجدة في العوالم الخارجية للنص؛ فالناس هم الذين يخلقون النصوص وهم الذين يتلقون الخطابات وهم يتكفلون بإنشاء قسم كبير من الأفضية الدلالية للنص، إلا أن ما يؤكد عليه التماسك هو الوحدة الموضوعية للنص، أي ما يطلق عليه بالبنية النصية الدلالية الكبرى هذا الذي يعطي النص هويته (المصدر نفسه، ص ٢١١ - ٢١٠).

«ومن هذا المنطلق، نجد التماسك يرمي إلى غاية بعيدة وهي توظيف الآليات النحوية في الربط بين أجزاء النص، ومن ثم فهم المعنى عبر رؤية متماسكة لا تقتصر في تحليلها على الجملة. وبهذا يتضمّن في بعده أهمية الدور الذي تقوم به قواعد النحو في تشكيل المعنى، وفي جانب آخر يمكن اعتباره خاصية فارقة، تميز بين مفهوم النص ومفهوم الجملة، ويمكن توضيح تجلياته في إحداث ترابط نصي في الكيفية التي تشغل بها آلياته من حيث توزيع مفردات المعجم ضمن قوانين النحو وهذه المفردات قد تستعمل بمعناها الحقيقي، وقد تتباعد عنه مسافات متفاوتة تحددها درجة المجاز المراد الوصول إليها» (بخولة، ٢٠١٦ م، ص ٢٤). ويتحقّق التماسك النصي عبر آليات نصية أهمّها الإحالة، والتكرار والاستبدال والحذف. وهو مفهوم يسكب في أطر ثلاثة هي الاحتباس والاعتدال والارتباط. وهو يتشعب إلى قسمين: السبك والحبك. السبك هو التماسك الشكلي الذي يهندس النص عبر الآليات اللغوية ويجعله في تواصل متواشج؛ أما الحبك فهو التماسك الدلالي الذي يكشف الغطاء عن العلاقات المفاهيمية في النص ويخلق أفضية دلالية مترابطة متجانسة (المصدر نفسه).

«فالتماسك هو الكيفية التي تمكن القارئ من إدراك تدفق المعنى الناتج عن تنظيم النص ومعها يصبح النص وحدة اتصالية متجانسة، أي أن هناك تفاعل متبادل بين القارئ والنص. يعتمد التحليل النصي أساساً على التماسك في تحقيق النصية، فالتماسك يهتم بالعلاقات بين أجزاء الجملة، وبالعلاقات بين جمل النص وفقراته، بل وبين النصوص المكوّنة للكتاب كالسور المكوّنة للقرآن الكريم ويهتم أيضاً بالعلاقات بين النص وما يحيط به، ومن ثم يحيط التماسك بالنص كاملاً، داخلياً وخارجياً، وقد استعمل مفهوم التماسك لتفرقة بين النص واللانص» (المصدر نفسه، ص ٢٥ - ٢٤). ويعرف أحمد عفيفي في كتابه نحو النص، التماسك على أنه تواجد علاقة بين أجزاء النص أو جمل النص أو فقراته لفظية أو معنوية بين عنصر في النص وعنصر آخر يكون ضرورياً لتفسير النص الذي يجمل مجموعة من الحقائق المتوالية (٢٠٠١ م، ص ٣٤ - ٣١). للتماسك أو الاتساق أو التضامّ النحوي عناصر وأدوات ومظاهر تسهم إسهاماً بارزاً في ظهوره على خشبة النص وخلق نصّ متواشج متشابك. تتلخّص هذه المظاهر فيما يلي:

١.١.٥ الاختصاص

الاختصاص هو أحد مظاهر التضامّ التركيبي يعني بأهمية الحروف والأدوات باختصاص كل نوع منها بالدخول على عناصر لغوية محددة، وهو يؤكد وظيفتها في قوة المعنى والارتباط؛ «وذلك لأنّ الحرف لا يمكن إدراكه في ذاته، أي من دون ارتباطه بكلام آخر، وإتّما عن طريق تضامّه مع ألفاظ أخرى، جمل، وقد يتعدّى الأمر إلى الوحدات النصية. كاختصاص (إنّ وأخواتها) بالدخول على الأسماء،

١. عبد القادر القنيني: مترجم مغربي من ترجماته يمكن الإشارة إلى اللسانيات ومنطق اللغة الطبيعي للمؤلف جورج لايكوف، ومحاضرات في علم اللسان العام لفرديناند دي سوسير، ونظرية أفعال الكلام العامة: كيف تنجز الأشياء بالكلام لأوستين، والنص والسياق لفان دايك (www.goodreads.com).

واختصاص (حروف الجرّ)، و(أدوات النداء) بذلك أيضاً، واختصاص (أحرف الجزم والنصب) بالدخول على الأفعال المضارعة، وغيرها من الأدوات» (الحدراوي، ٢٠٠٧م، ص ٥٣ - ٥١).

٥-١-٢. الافتقار

ظاهرة الافتقار من أهم الآليات النصية التي تعمل على تماسك النصّ و«معناه أن لفظاً ما لا تتمّ به الفائدة، ولا يؤدي معنى مفيداً في الكلام، وإنما يتطلّب في حيّزه لفظاً آخر؛ لاحتياجه إليه، أي يتمثّل باحتياج عنصر لغوي لعنصر لغوي آخر، كأن يكون كلمة أو جملة، ويتعدّى الأمر ليشمل الوحدة النصية. يقسم الافتقار على قسمين: الافتقار المتأصل والافتقار غير المتأصل» (المصدر نفسه، ص ٧٣). ثمّة افتقار الصفة إلى الموصوف يُعدّ من أبرز آليات التماسك النصي؛ إذ لا تكتمل الصفة إلا بموصفها الذي يسبقها.

٥-١-٣. التضاد والتقابل

يسجل التضاد أو التقابل بصمات قائمة في طريق تماسك النصوص وانسجامها. وهذه الظاهرة ترد في اللغة، وكأنها سمة من سماتها العادية. وهناك ضروب من التقابل الحادّ في نحو التقابل المتواجد في ميث وحيّ، والتقابل المتدرج مثل ما يترأى بين طویل وقصير وما يماثلها من التقابلات. وتقابل العكس يتجلى في الألفاظ المزدوجة من أمثال باع واشترى، أو الزوج والزوجة وما يماثلها (صوالحية، ٢٠١١م، ص ٥٧).

٥-١-٤. الترادف

يظهر الترادف في قائمة التضام النصي كآلية فاعلة في إنشاء تماسك النصّ. وقد يعرف الترادف على أنه «ما اختلف لفظه واتحد معناه، نحو: البرّ، والخطّة والقمح. وبمثل هذا المفهوم حدّه سيبويه بقوله: "هو اختلاف اللفظين والمعنى واحد". كما يعرف "كروز" الترادف بأنه علاقة بين المفردات بحيث بحيث تكون هذه المفردات متطابقة في سماتها الدلالية الأساسية، ولكنها تختلف أحياناً في سماتها الثانوية» (ليلي، بلا تا: ص ٥).

٥-١-٥. التكرار

ويعتبر التكرار من أهمّ وسائل تماسك النصّ وانسجامه. فهو تارة يرتبط باللفظ وأخرى يرتبط بالمعنى ف«يعرف السجلماسي التكرير بأنه إعادة اللفظ الواحد بالعدد أو بالنوع في القول مرتين فصاعداً» (خطابي، ١٩٩١م، ص ١٣٤).

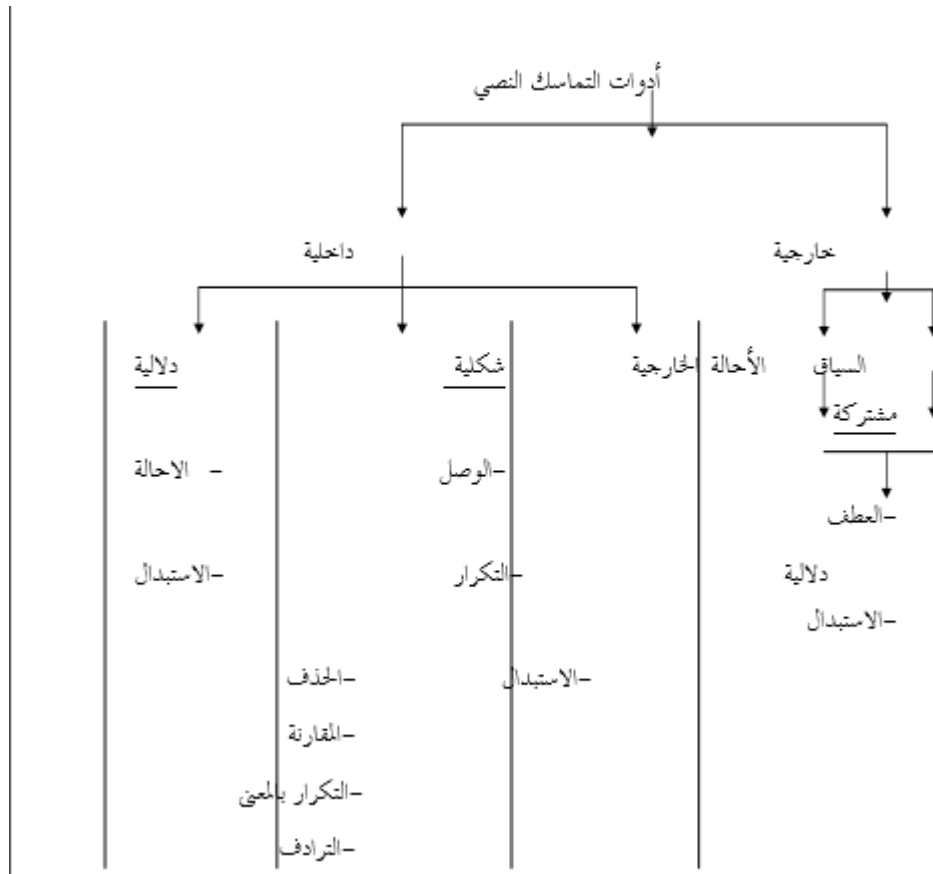
٥-١-٦. العدول عن الرتبة / الانزياحات التركيبية

مصطلح الرتبة يدل على «قرينة تشكّل علاقة بين جزأين من أجزاء السياق يدلّ موقع كلّ منهما من الآخر على معناه. فكل عبارة تتخذ موضعاً خاصاً بها، وترتيباً خاصاً، فإن تغيّر ذلك الترتيب أو زال تغيّرت دلالتها في سياق التركيب الكلامي، وترتبط وظيفتها السياقية بالسوابق واللواحق على أساس ذلك الموقع الثابت لها في السياق، وهذا يوحي بتعالق أجزاء الكلام وتماسكها» (المصدر نفسه، ص ١٣٤ - ١٣٣).

٥-١-٧. آليات الربط

تلعب آليات الربط دوراً ريادياً في ضمان تماسك النصّ وانسجامه وهي تنقسم إلى قسمين: الأول الربط بالإحالة؛ والثاني الربط بالأدوات. والربط بالإحالة هو توظيف الإحالة بما لديه من أصول وجوانب يقدم للنصّ نسيجاً متلاحماً. وقد وردت هذه الآلية في النصوص ولاسيما العربية بتواتر يستغني عن القول وقد «يرى النصيون» أن الإحالة علاقة دلالية، لا تخضع بالضرورة لقيود نحوية، غير أن وجوب تطابق الخصائص الدلالية بين العنصر المحيل والعنصر المحال إليه يجعلها تستجيب لضوابط تركيبية تطابقية. ويعتبر النحو أحد هذه الأنظمة اللغوية إذ تشكّل عناصر التركيب أسس التماسك الذي يقتضيه النصّ، وتنقسم الإحالة إلى نوعين رئيسيين: الإحالة المقامية والإحالة النصية» (بوهادي، ٢٠١٣م، ص ٥٨).

والوسائل النصية التي تعدّ عدّة لتكوين الإحالة هي الضمائر، وأسماء الإشارة، وأدوات المقارنة التي تتمثل في التطابق والتشابه والاختلاف، والحذف وهو علاقة قبلية تقترب من علاقة الاستبدال على أنها علاقة بالصف، حيث تترك فراغاً كبيراً يستعاد الماضي اللغوي به (الحمادي، ٢٠٠٤م، ص ٥٥).
تتلخّص أهمّ آليات التماسك النصي في الخطاطة التالية:



٦- التماسك النحوي في خطب الإمام الحسن

خطب الإمام الحسن مُفعمة بالبلاغة والفصاحة والدلالات القيمة التي ترشد الذين يبحثون عن الحقائق الحقّة ويفتّشون عن الصراط المستقيم والدين القويم والحبل المتين. فإذا بالناظر ينظر إلى الخطب وكأنّها وحدة موحّدة متشابكة متواشجة، فهناك تأتي آليات التماسك النصي لتضع يداً بيد وتعطي الفكرة التي سعى الإمام وراء تحقيقها. والفكرة التي توحى بها هذه الخطب ليست مفكّكة العرى، بل تشكّل رسالةً ضخمة لا انفصام لعرها، وذلك رغم اختلاف المواقف التي أقيمت فيها هذه الخطب. ويتراءى دور التماسك النحوي في إرسال الفكرة وإيجائها بشكل بارز لا نكران له. فسعة التماسك وفاعليّة آلياته تنعكس على واجهة الخطب من دون أن تشوّه هذه الآليات عملية التواصل اللغوي. ففيما يلي يحاول البحث الاستجلاء عن حقيقة هذه الظاهرة اللغوية والتعرف على حدودها.

١.٦- الاختصاص وفاعليته في خطب الإمام الحسن

الاختصاص بشتى صورته يستوعب كمية ملحوظة من كلام الإمام الحسن؛ فالاختصاص الاسمي يضمن تماسك الفضاءات النصية. ففي الخطبة الأولى التي جاء بها عند مقتل أبيه الإمام علي (عليه السلام)، يبدأ كلامه بحمد الله سبحانه وتعالى والثناء عليه قائلاً: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كَانَ فِي أَوْلِيَّتِهِ وَحْدَانِيًّا فِي أَرْزَلِيَّتِهِ مُتَعَطِّمًا بِأَلْهِيَّتِهِ مُتَكَبِّرًا بِكِبْرِيَائِهِ وَجَبْرُوتِهِ ابْتِدَاءً مَا ابْتَدَعَ وَأَنْشَأَ مَا خَلَقَ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ كَانَ سَبَقَ مِمَّا خَلَقَ رَبُّنَا اللَّطِيفُ بِالطُّفْلِ رَبُّوِيَّتِهِ وَيَعْلَمُ خَبْرَهُ قَتَقَ وَيَأْحِكَامُ قُدْرَتِهِ خَلَقَ جَمِيعَ مَا خَلَقَ فَلَا مُبَدَّلَ لِخَلْقِهِ وَلَا مُعَيَّرَ لِصُنْعِهِ» (الموسوي، ١٩٧٥م، ص ٩). فالمؤشر الاسمي "كان" يصبح نقطة انطلاق الاختصاص الاسمي بداية الخطبة. وهذا الوجود الذي يصوره "كان" ويحيل إليه، يعود إلى أزلية البارئ ووحدانته. فما يتجدد في البنية التحتية لهذه الوحدة هو «كان الله وحدانيًا». المؤشر الفعلي "كان" ينطوي على حالتي التمام والنقصان في هذه الوحدة، فإذا اعتبر على أنه مؤشر تام تثبت عبره أزلية الله سبحانه وتعالى والوحدات المتتالية تصبح تفسيراً لـ"كان" التامة، وإذا كان المؤشر الفعلي "كان" ناقصاً يتحقق التماسك النصي عبر تكرار المتعلقات المتواجدة بعده:



ويستمرّ التعالق النصي بتكرار "كان" في الوحدة التالية «كان سبق مما خلق». ولا ينتهي الاختصاص الاسمي بهذا التواتر، بل ينتشر على سطح الخطبة على يد سائر المتعلقات الحرفية في نحو: «اللطف بلطف ربوبيته ويعلم خبره وأحكام قدرته». فالباء تتكرر لتؤكد على أن الله سبحانه وتعالى لطيف ولطافته تتسع إلى حيث لا يعقله البشر؛ وتكررت اللام في جلّ عبارات هذه الخطبة: «فَلَا مُبَدَّلَ لِخَلْقِهِ وَلَا مُعَيَّرَ لِصُنْعِهِ وَلَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَلَا رَادًّا لِأَمْرِهِ وَلَا مُسْتَرَاخَ عَنْ دَعْوَتِهِ خَلَقَ جَمِيعَ مَا خَلَقَ وَلَا زَوَالَ لِملْكِهِ وَاقْتِطَاعَ لِمُدَّتِهِ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ عَلا وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ دَنَا فَتَجَلَّى لِخَلْقِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ يُرَى» (المصدر نفسه).

وتتضاءل اللام في نهايات الخطبة لتعطي دورها إلى المؤشر الحرفي "عن": «فَاسْتَشَرَ عَنْ خَلْقِهِ وَبَعَثَ إِلَيْهِمْ شَهِيداً عَلَيْهِمْ وَبَعَثَ فِيهِمُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَلْعَقَلِ الْعِبَادُ عَنْ رَبِّهِمْ مَا جَهِلُوهُ» (المصدر نفسه). وتلعب "لا" في مسرح الخطبة دور الممثل الأول حيث تشكل العامود الأساسي في صدرها وكأنّ الخطبة في لغتها ومعناها تتكئ عليها:



تتصدر هذه الوحدة بالموثّر الحرفي "لا"؛ فهو كالعقد الفريد الذي ينتمي إليه جميع الدلالات وكلّها تعمل على إزاحة الستار عن الله سبحانه وتعالى؛ إذ تجعله يحضر عند القلوب. فخلقه لا يتبدّل وصنعه لا يغيّره شيء وحكمه لا يؤجّل وأمره محتوم لا يؤخّر، وهو سرمدى لا ملكه يزول ولا مدّته تنقطع.

فالمتوقّع في هذه الخطبة، وهي قيلت في مقتل علي بن أبي طالب، أن تختصّ بأمر المؤمنين الإمام علي، إلا أنّ الطقوس الدلالية في هذه الخطبة تتأرجح عن المنوال المعهود ويتحوّل الفضاء الخارجي للنصّ ذريعة للولوج إلى قضية التوحيد وحمد الله سبحانه وتعالى. وهذه رسالة هادفة إلى المتلقّين لخطاب الإمام في أقصى أنحاء العالم. وفي جميع العصور، حمد الله وشكره وتذكّار نعمه أجدر شيء بالمصاب آونة نزول المصيبة عليه.

البؤرة الرئيسة التي تتكفّل التماسك في الخطبة الخامسة للإمام الحسن هي الاختصاص. وهذه الخطبة حرّية بدارسها بأن يلقبها بخطبة الاختصاص. وذلك عبر توظيف الموثّر "لا". وكأنّ الإمام في الوحدات الوصفية يكثر من استعمال الاختصاص الاسمي وهو لم يتخذ موقفاً إيجابياً في هذه الوحدات يُضفي به على الموصوف ماهيّة، بل هو ينزّه، قدر المستطاع، مما هو معهود عند الناس. ولا غرو من ذلك لأنّه وصف للبارئ الذي تعالى جدّه عن وصف الواصفين:



فالموثّر الحرفي "لا" يتواتر في هذه الوحدة، بل يُعدّ حبلًا يشكّل نسيجاً متماسكاً في النصّ. وهناك التقابل الدلالي الخفي بين «لا قبل مدرك» و«لا بعد محدود». وتجاوز المرادفات وشبهها في هذه الخطبة «العقول والأوام» و«الفكر وخطراتها» تجعل آليّة الاختصاص تحتكّ بسائر آليات التماسك لتنشر مفهوم الحمد في ساحة الخطبة هذه وتؤكد على حقانية المديح وحققيته. ويخلق النداء فضاء تنبيهياً استرشادياً في خطب الإمام ويستأنف الكلام به في جلّ الأحيان ومن نماذج توظيف الاختصاص بالنداء الخطبة العاشرة: «أيتها الناس إنّ ربّ عليّ كان أعلمّ بعليّ حين قبضه إليّ ولقد اختصه بفضّل لن تُعهدوا بمثله ومثله ولكنّ تجدوا مثل سابقته. فهيهات هيهات طالما قلبتمّ الأمور حتى أعلاه الله عليكم وهو صاحبكم عزاكم في بدرٍ وأخواتها جرّعكم رنقاً وسقاكم علقاً وأذلّ رقابكم وشرّقكم بريقتكم فلستمّ بمؤمنين على بغيره وإيم اللّو لا تُرى أمّةٌ محمّبر خفصاً ما كانت سادتهم وقادتهم في بني أميّة ولقد وجّه اللّو إليكم فثنته لن تُصدوا عنها حتى

تَهْلِكُوا لِطَاعَتِكُمْ طَوَاعِيَّتِكُمْ وَأَنْضُوا إِلَيْكُمْ إِلَى شَيْءٍ طَائِفِكُمْ فَعِنْدَ اللَّهِ أَحْتَسِبُ مَا مَضَى وَمَا يُنْتَظَرُ مِنْ سُوءِ رَغْبَتِكُمْ وَحَيْفِ جُلُومِكُمْ» (المصدر نفسه، ص ١٩).

تتكاثف آليات التماسك عبر الاختصاص في هذه الوحدة، وهي تتوزع توزيعاً انتشارياً موسعاً. ويشكل النداء في النصّ فضاء دلاليّاً عنقودياً، حيث الجمل في النموذج السابق تتصل دلاليّاً بالوحدة "أيها الناس"، من دون أن ترتبك في تعلقها. وكذلك في الخطبة الثالثة عشرة، يحلّ النداء محلّ النواة المركزية في الخطبة. والطقوس النصية في هذا النصّ تغاير سابقه من جهة الإيحاء؛ فهو نصّ يقصد توجيه الإنسان توجيهاً صائباً. وهناك أدوات أخرى للاختصاص منها الاختصاص الاسمي، نحو: «فإنّ جار الله آمن محفوظ»، «فإنّه قريبٌ مجيب» (المصدر نفسه، ص ٢٥). وتوسّع الشرائح الدلالية للخطب عبر استدعاء النصّ القرآني. فيملاً الإمام الحسن بأيّ المصحف الشريف فيقول في أثناء خطبته اقتباساً من القرآن الكريم: «وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ» (البقرة، ٢: ١٨٦).

فهذا الاستدعاء الإيحاء اللغوي يُنشئ تماسكاً ثنائياً ذا جناحين؛ فالجناح الأوّل يتجلّى في بناء التماسك عبر آليات داخل النصّ التي حرصت عليها ذاكرة المرسل واحتفظت بها. فالإمام الحسن ملّم بالآي الكريم وقد نسج كلامه بالخيوط الدلالية للقرآن سواءً عن وعي أم لا وعي. ثمّة الجناح الثاني ينبي فيه التماسك عبر توظيف آليات خارج نصية، وهو ما يصطلح عليه بالتناص. فهذه التقنية تخلق جسراً تواصلياً متيناً بين كلام الإمام والقرآن؛ فإنهما لن يفترقا. وهذا الثقب لا ينتج تماسكاً داخل النصّ فحسب، بل يبدع تماسكاً مفتوحاً بين عناصر النصّ كلّها.

وفي الخطبة الثالثة والثلاثين وهي من كلامه بعد الصلح، يستدعي الإمام قصّة النبي موسى والخضر (عليه السلام) ليستدلّ عليها وليبرهن على ما فعل من حكمة لا يدركه إلا أصحاب الحكمة: «يا أبا سعيدٍ إذا كنتُ إماماً من قبيل الله تعالى لم يجز أن يسفه رأيي فيما أثبتته من مهادنة أو محاربة وإن كان وجه الحكمة فيما أثبتته مُنْتَسِماً ألا ترى الخضر لما خرّق السفينة وقتل الغلام وأمّ الجدار سخط موسى فعله لاشتباه وجه الحكمة عليه حتى أخبره فرضيه هكذا أنا سخطت عليّ بجهلكم بوجه الحكمة ولو لا ما أثبتت لآثرتك من شيعتنا على وجه الأرض أحدًا إلا قتل» (الموسوي، ١٩٧٥ م، ص ٩).

فهذا نموذج آخر للتماسك الثنائي الذي يستعمله الإمام، وهو استدعاء للشخصيات وإحيائها إحياءً موعّضاً للحالة الراهنة، فالخضر هو الإمام وموسى هو أبوسعيد الذي يجادل الإمام ويحاربه عن جهلٍ للموقف الذي اتّخذه من معاوية. والملاحظ في هذه الخطبة أنّ التماسك يتضمّن عبر إقامة الحوار الذي يرد مراراً ليضمّن تماسك النصّ ويشدّ لفته المخاطب من دون أن يسبب شروء بالٍ أو إرهابٍ وملل. ويأتي هذا التكرار ليخلق هندسة بديعة لكلام الإمام ومنظومة متناسقة تتكفّل بتشديد راية التماسك في النصّ.

٦-٢. الافتقار وفاعليته في خطب الإمام الحسن

يدير البحث عدسته نحو معالجة الافتقار في خطب الإمام الحسن وبصورة خاصّة الخطبة السادسة والأربعين. وذلك لأجل مكانة هذه الخطبة من بين سائر الخطب. فهي وردت في إزاحة الستار عن خبث معاوية وأتباعه الأربعة والأسهم التي صوّبها نحو الإسلام الأصيل والبوح بزركشة هؤلاء للحقائق، وهي تهدف من وراء كل هذا، التوكيد على حقانية الإمام عليّ ونفي التهم عن وجهه. وذلك للأجواء الخارجية التي مهّدت الأرضية للإلقاء هذه الخطبة وخلقها على هذا الأسلوب وبهذه الإيحاءات التي تحفظ الإمام وتصون نسبه؛ لأنه اجتمع مع معاوية أصحابه عمرو بن العاص والوليد بن عقبة وعتبة بن أبي سفيان والمغيرة بن شعبة وطلبوا منه كي يحضر الإمام الحسن حتى يعيروه ويؤبّخوه. وهذه الخطبة وردت انعكاساً وردّ فعل لهذا الطلب الشنيع.

أما تقنية الافتقار فتأتي في الواجهة لتعتني بتحقيق التماسك في هذه الخطبة الحاسمة. وأكثر أساليب الافتقار تواتراً هو "العطف"، ومن أبرز آليات العطف في هذه الخطبة أو قل في جميع خطب الإمام هو توظيف "الواو العاطفة". وليس توارد الواو توارداً متكاثفاً ليملّ المتلقي ويرهقه، بل هنالك تنوع أساليب توظيف الواو في هذه الخطبة، فتعطف الجملة على الجملة وتارةً أخرى تأتي بالمفرد وتُحيله على المفرد وأحياناً يساعد الواو على تضخيم عنصر فعلي خاص؛ نحو: «ولكن اسمع يا معاوية واسمعوا» (المصدر نفسه، ص ٧٣). حيث تتكرر عبر هذه الشريحة الدلالية المؤشر الفعلي "اسمع" ليؤكد على أهمية الاستماع ويبيّن أنّ المخاطب غير مهتم بما يلقي عليه من كلمات وثمة تضخيم وتجسيد وتنوع عبر توظيف الضمائر وذلك على يد صنعة الالتفات: «فلا أقولنّ فيك وفيهم» (المصدر نفسه). فالواو جاءت لتحلّ محلّ "لا أقولنّ" وتحول دون تكراره حشواً: «لا أقولنّ فيك ولا أقولنّ فيهم».

أما التكرار المقصود فهو ليس من أسرة التكرار الاستبدالي الذي يحضر باستحضار المؤشر الحرفي "الواو" في هذه الوحدة، بل ينتج عن تكرار المؤشر الحرفي "في" و التغيير الضمائري أي ضمير المخاطب إلى ضمير الغائبين يزيد من بلاغة النص ويولد تماسكاً رائعاً ما بعده تماسك. وتتراوح الواو والفاء تراوحاً ملحوظاً في هذه الخطبة. ولهذا التنوع فاعلية باهرة في تشييط المخاطب ولفت انتباهه: «وسفهه وشتمه وكذبه وتوعده وهمّ أن يبطش به فلعهه الله ورسوله ... فطردها أبوسفیان وصاح بها فلم يظفر المسلمون بها ولعنه رسول الله» (المصدر نفسه، ص ٧٥). وليس هذا التنوع بين الواو والفاء تنوعاً مسطحاً، بل يتضمّن تراوحاً بين الزمن واللازم؛ إذ الواو تدلّ على الترتيب والترتيب يقترب من اللازم أو هو اللازمية البحتة؛ أما الفاء فتوحي بالشريحة الزمنية المتتالية. فحين تمام عملية التلقي للمعنى ما يحيط بالمتلقي وما يستشعر به في لاشعوره يكمن في حقل الزمن الخفي. لا شك أنّ لفاء التي تجاور المؤشر الفعلي دور فاعل في إلقاء المعنى وبلورته؛ لأنّها ترسم حلقة يلتحق بها الفضاء الخارج عن النصّ بالأجواء المتواجدة في داخل النصّ.

والافتقار عبر العطف لا ينتهي في هذه الآونة، بل هنالك مؤشر آخر أي "ثمّ" يعزّز تحليل السياق اللغوي، إلا أنه يقلّ وروده في الخطبة هذه وتبقى معلّمة في القسم الأخير من الخطبة وترد عبر فواصل تستوعب مساحة فقرة أو أكثر:

ثم قام أبوك فقال: أنا شاني محمد الأبر، فأنزل فيه ما أنزل، وقالت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في جميع المشاهد، وهجوته وأذيته بكمة، وكدته كيدك كله، وكنت من أشد الناس له تكذيباً وعداوة، ثم خرجت تريد النجاشي مع أصحاب السفينة لتأتي بجعفر وأصحابه إلى أهل مكة، فلما أخطأك ما رجوت ورجعتك الله خائباً وأكذبك وإشياً، جعلت حدك على صاحبك عمارة بن الوليد فوشيت به إلى النجاشي حسداً لما ارتكب من حليلته فضحك الله وفضح صاحبك، فأنت عدو بني هاشم في الجاهلية والإسلام ثم إنك تعلم وكل هؤلاء الرهط يعلمون أنك هجوت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بسبعين بيتاً من الشعر، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) اللهم العنه بكل حرف ألف لعنة فعليك إذا من الله ما لا يحصى من اللعن، وأما ما ذكرت من أمر عثمان فأنت سعرت عليه الدنيا نارا، ثم لحقت بفلسطين، فلما أتاك قتلتك، قلت أنا أبو عبد الله إذا نكأت قرحة أدميتها ثم حبست نفسك إلى معاوية، وبعث دينك بدنياه فلسنا نلومك على بغض ولا نعاتبك على ود، وبالله ما نصرت عثمان حيا، ولا غضبت له مقتولا (المصدر نفسه، ص ٧٦).

ويتزاوج "ثمّ" مع الأفعال الماضية "قام، وخرجت، ولحقت، وحبست" ليستعاد به مشهدا ماضويا ابتعد عن الآونة الراهنة. وتنتج هذه المعاودة تماسكاً في المنظومة المفاهيمية للنصّ. والمتلقي يحسّ بمرور الزمن وحيوية الصور المستعادة، وكأنّها تحدث ثانية وتترك بصماتها القائمة على أرصفة الأذهان. أما افتقار الوصول بالصلة فلم يستطع أن يؤكد لنفسه حضوراً قائماً في هذه الخطبة

وشأنه شأن سائر المفردات، إلا أنه يرتبط بحساسية فائقة بالموقف الذي يرد فيه ويبلغ قرارة الخطبة برفع التهم عن الإمام علي: «أتعلمون أن الذي شتمتموه منذ اليوم صلى القبلتين كليهما وأنت يا معاوية بهما كافر تراها ضلالة، وتعبد اللات والعزى غواية» (المصدر نفسه، ص ٧٣).

فالملمح الدلالي في هذه الوحدة يسيطر على الملامح اللغوية، وللموصول دوره الاستبدالي المعهود؛ فهو ذكر استبدالاً للتصريح باسم الإمام علي ما يثير التفكير في المتلقي ويبعثه على استفسار. والموقف تقابلي يقارن أثره الموصول "الذي" بالاسم المصرح به "معاوية" مقارنة خُلقية اعتقادية. وهذه المقارنة تنصبّ للماضي قوائمه الشاحبة. وهناك عنصر الزمن الخارجي التاريخي يتواشج والعنصر الزمن الداخلي ويتقارنان. فـ "اليوم" يتحقق الشتم فيه، وهو شتم غير عادل؛ لأنّ تاريخ يثبت أنه غير حقيق لهذا الشتم؛ لأنّ الإمام علي تتوّج وجوده بالإيمان ولم يتسرّب الشرك يوماً في نفسه، هذا بينما أنه سبق لمعاوية أن كفر بالله عزّ وجلّ واتخذ له شريكاً بعبادة الأوثان ولاسيما اللات والعزى.

ولا يكون استخدام الموصول حكراً على الموصولات الخاصّة، بل هنالك موصول عامّ يوظّف في الموقف نفسه: «قال يا معاوية أظنك لا تعلم إني أعلم ما دعا به عليك رسول الله» (المصدر نفسه، ص ٧٥)؛ الموقف الذي تطفو به الحقائق الكامنة على السطح ويذوب فيه معاوية ذلاً وحقارةً لماضيه الحالك. والموصول العامّ "ما" يقوم بوظيفة ثنائية: الأولى تحقيق الانسجام عبر الوحدات السابقة بالوحدات اللاحقة؛ والثانية هي تسدّ ما يحتاج إليه الفعل "أعلم" ويفتقر إليه من متعلّقات، فهو مفعولٌ به ثمّ التكرار الاشتقائي في "تعلم" و"أعلم" وانتقال صيغي "أنت" و"أنا" يحوك في النصّ تماسكاً منضداً سميكا غير ممزّق.

والتركيب الإضافي "رسول الله" يمتدّ في ساحة النص امتداداً انتشارياً ويرد مراراً ليخلق هيكلًا ضخمًا ثابتاً لهذه الخطبة الحاسمة وهو يشيد برايته على صعيد مستويين البنية الدلالية والبنية السطحية التركيبية من دون تقشّف. فيصبح رسول الله (صلى الله عليه وآله) هو المرجع الأساس للبراهين والشواهد التي يستند إليها الإمام الحسن. ثمّة إضافة الظرف "يوم" إلى المؤشرات الفعلية أو الاسمية يبني أسلوباً متواتراً في هذه الخطبة "يوم + جاء، يوم + وقفوا، يوم + أحد" وبها تتضافر الحلقات الزمانية تضافراً وطيداً من الزمن الظرفي والزمن التاريخي والزمن النحوي المتواجد في الكينون الفعلي.

والتعداد من أوسم التقنيات المستعملة في هذه الخطبة، وهو افتقار مستجدّ؛ لأنّ عدّ العدد يجعل المتلقي متوقفاً لاستماع العدد الآخر: «أيها الرّهط نشدتكم الله ألا تعلمون أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعن أباسفيان في سبعة مواطن لا تستطيعون ردّها، أولها يوم لقي رسول الله خارجاً في مكة... والثانية يوم عير... والثالثة يوم أحد... والرابعة يوم جاء بالأحزاب والخامسة يوم جاء أبوسفيان في قريش... والسادسة يوم الجمل الأحمر والسابعة يوم وقفوا لرسول الله...» (المصدر نفسه). وهذه التقنية تعمل على إقامة الصلات المتينة بين فقرات النص وتبعث بالسياق على الحركة الأمامية حركة متناسقة ترنو إلى إبلاغ الرسالة التي يحتويها النصّ إلى المتلقي.

٦-٣. التضاد والتقابل وفعاليتهما في خطب الإمام الحسن

من التقنيات الجادة في دائرة تماسك النصوص هو التقابل. ولا تشكّل خطب الإمام استثناءً وحياداً، بل يجد القارئ في طياتها كمية ملحوظة لهذه التقنية. وأكبر أثر تتركه هذه الآلية في إطار الرسائل اللغوية والمساحات النصّية هو التوكيد الدلالي بتسليط الأضواء على شقّ من المعنى وتضخيم جوانبه المغايرة احتذاءً للقاعدة الشهيرة التي تتكوّن في هذه الشريحة «الضدّ يعرف بالضدّ». فالتقابل

هو الإيحاء بالجوانب الكامنة عبر البوح بالشق المضاد؛ فلذلك لا ينبغي أن نجزي التضاد عن التقابل، بل الأول يتضافر تضافراً لا انفكاك له مع الثاني.

أما البحث فيجبل ببصره نحو أبرز خطب الإمام الحسن التي تخصّ بآل البيت وإحياء فضائلهم. وذلك لتواتر الوحدات التقابلية فيها. فالخطبة الرابعة والثلاثون يستهلها الإمام بحمد الله سبحانه وتعالى والثناء عليه حمداً أسلوبياً يتواجد في جميع الخطب ويجعلها كخرز سُبحة واحدة تتعاضد وتتضاد؛ ويستمرّ الكلام في الخطبة بعد ذلك باقتباس قرآني يقف فيه التقابل منصوباً على قوائمه: «وأذهب عتاً الرجس وطهرنا تطهيراً» (المصدر نفسه، ص ٥٥). يتحقق التقابل في هذه الوحدة عبر المؤشرين الاسمين "الرجس" و"تطهيراً" تقابلاً يظهر على البنية السطحية، إلا أنّ هذا التقابل يزول وينمحي عبر سيطرة المؤشر الفعلي "أذهب عتاً" ليخلق ترادفاً معنوياً على صعيد البنية الدلالية. فذهاب الرجس يساوي التطهير رغم التضاد اللغوي المتواجد بين الرجس والتطهير ورغم التقابل التعريفي الكامن في المؤشرين المذكورين، حيث أنّ الرجس معرفةً وتطهيراً مؤشّر تنكيري يتزواج التقابل اللغوي والتقابل التعريفي.

ولا ينحصر التقابل في هذه الخطبة في التقابل اللغوي، بل هنالك تقابل آخر يظهر عبر التباينات الدلالية للضمائر الموظفة: «أما أنت يا علي فمّني، وأنا منك، وأنت وليّ كلّ مؤمن ومؤمنة من بعدي» (المصدر نفسه). فالتقابل الضمائري يتجلّى في الحركة المقصدية التي يرنو إليها الضميران "أنت" و"أنا" أي الخطاب والتكلم، وكذلك التقابل المتواجد في الضميرين المتصلين "ي" و"ك" اللذين التحقا بالمؤشّر الحرفي "من"، وهما توكيد وإحالة للضمائر المنفصلة "أنا" و"أنت" إحالةً متناسقةً متناغمةً. وهنالك تقابل آخر تظهر ملاحظه في كلمتي "مؤمن" و"مؤمنة". فالأول مذكر والثاني مؤنث.

وهكذا استوى التقابل على سوقه في هذه الوحدة وتضخّم باكتظاظ غير معهود والغريب والأعجب العجيب هو الغاية التي ينجح إليها هذا التقابل المتكاثف؛ إذ هو الاتحاد الذي تنكسف تحت ظلّه الوارف جميع التقابلات المتمادية في هذه الوحدة ف علي عليه السلام والنبي صلّى الله عليه وآله وسلّم متّحدان ومتجانسان تجانساً شبه تام؛ حيث يصبح علي ولي المؤمنين بعد النبي ﷺ.

وفي الخطبة الخامسة والأربعين، يقترن التقابل بالتناصّ في كلام الإمام الحسن؛ إذ يقول: «نحن فيكم كالسّماء المرفوعة والأرض المدحوة والشمس الصاحية، وكالشجرة الزيتون، لا شرقية ولا غربية التي زيتها النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم وعلي فرعها، ونحن والله ثمرة تلك الشجرة، فمن تعلق بغصن من أغصانها نجى ومن تخلف عنها فإلى النار هوى» (المصدر نفسه، ص ٧٢). فهذه الوحدة استدعاء للنصّ القرآني: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ. فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبَّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ (سورة النور ٢٤: ٣٦ - ٣٥).

فالشريحة المتضادة تظهر في نطاق وصف الشجرة الزيتون التي لا شرقية ولا غربية؛ فالشرق والغرب جهتان متقابلان وظّفا ارتقاءً لمستوى التماسك في النصّ. ثمة السماء والأرض عنصران من أهمّ عناصر الطبيعة متقابلان وأوصافهما يتقابلان أيضاً تقابلاً جهياً: "المرفوعة، والمدحوة" وأخيراً "تعلق وتخلّف" و"نجى وهوى" يمهّدان الأرضية المناسبة للتقابل المتكاثف؛ إلا أنّ هذه التقابلات تخرج عن حلقة التقابلات المعجمية، فلن تقع النظرة في كتب فقه اللغة أو المعاجم على المؤشر الفعلي "تعلق" يقابله

"تخلف" وليس لفظ مرفوعة مقابلاً مثنوياً لـ "مدحوة"؛ بل هذه التقابلات نشأت عن أفضية النص الخاصة ونجمت عن الإيحاءات التي يشعّ بها هذا الخطاب. فهذه الدلالات دلالات داخل نصية تتعد عن الثوابت اللغوية المعهودة. وهذه التقابلات لا تسبب انفكالك النصّ وشتاته، بل هي تخلق عكس ما تظنّ به الظنون فضاءً دلاليّاً متماسكاً تحتشد فيه جميع العناصر لتبيّن معنى واحداً هو مدى أهميّة ولاية الإمام عليّ وفضيلة الأئمة الأطهار على سائر الناس.

ويتكرّر هذا التقابل التنظيري الذي تمّ عبر تجاّبه العناصر البيئية القائمة على أصول واحدة في نهايات الخطبة هذه: «وأقسم بالله لو تمسّكت الأمة بالثقلين لأعطتهم السّماء قطرها، والأرض بركتها، ولأكلوا نعمتها خضراء من فوقهم، ومن تحت أرجلهم من غير اختلاف بينهم يوم القيامة، قال الله عزّوجلّ: ولو أنّهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربّهم لأكلوا من فوقهم، ومن تحت أرجلهم وقال الله عزّوجلّ: ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون» (الموسوي، ١٩٧٥م، ص ٥٨).

هذا التقابل تنظيري؛ لأنّ العناصر المتناظرة البيئية قد اصطفت في هذه الوحدة جنباً بجنب. فمثلاً السماء، وقطرها، والأرض، ونعمتها الخضراء في الحقيقة عناصر متناظرة ولا يولد بها تقابل، إلا بعد أن تنصبّ وتنسكب في أجواء خاصّة مميّزة. ولا شك أنّها تعود إلى بؤرة مركزية موحّدة هو "الثقلين" والتمسك به. أمّا التقابل المكاني فينبعث من توافد العناصر الجهمية "فوقهم" و"تحت أرجلهم" وكلّ ذلك استمداداً بالتناص القرآني السافر المصرّح به.

ثمّة تقابل نصيّ دلاليّ آخر لم يخضع للتضادات اللغوية الرائجة. وهو تقابل المؤشرين الفعليين "آمنوا" و"كذبوا" ثمّ "لفتحنا عليهم بركات" و"فأخذناهم بما كانوا يكسبون". وهذا التقابل تقابل دلاليّ جملي يتوسّع عن دائرة المفردة الضيقة. وتوظيف "غير" يبدع أسلوباً تقابلياً مستجداً يتمثّل في الوحدة: «وأمر بسدّ الأبواب في مسجده غير بابنا فكلموه في ذلك» (المصدر نفسه، ص ٥٧). وما شابها من الوحدات؛ فالأبواب مغلقة منسدة غير باب أهل البيت. والتقابل بـ "غير" تقابل عكسي تجعل ما قبلها معاكساً لما بعدها دلاليّاً.

وهناك تقابل دلاليّ مقارن حيث يتمّ التقابل فيه عبر مقارنة مشهدين أو حالتين يتجلّى في وحدات كهذه الوحدة: «فكان أبي سابق السّابقين وأقرب المقرّبين إلى الله وإلى رسوله، وذلك أنّه لم يسبقه إلى الإيمان أحدٌ غير خديجة (سلام الله عليها)؛ فكما أنّ الله عزّوجلّ فضل السابقين على المتأخّرين، فضل سابق السّابقين، وقد قال الله عزّوجلّ: أجمعلتم سقاية الحاجّ وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله» (المصدر نفسه، ص ٥٦). فتقارن هذه الوحدة بين السابقين والمتأخّرين، وفضل الفئة الأولى على الأخرى وتتابع ذلك بتفاصيل واستدعاء كلام الله العظيم في مشهد وصفي يقارن بين سقاية الحاجّ وعمارة المسجد الحرام والإيمان الخالص بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيل الله والتفاني في هذا الطريق. وهذا التقابل وهذه المقارنة يمنحان النصّ تماسكاً أسلوبياً بديعاً يتمّ عبر توظيف أدوات أهمّها حرف استفهام أي الهمزة ثمّ كاف التشبيه اللاحقة باسم الموصول وكأنّ التشبيهية التي تصدرت وجلست في قلب الخطاب ثمّ الواو يرد متواتراً في الخطبة هذه.

والتقابلات الحرفية والضمائرية تخلق تراوحت إيقاعية يعضد تماسك النصّ وينقض الرّتابة المملّة. وهذا ما نجده في نهايات الخطبة: «فحقّ على كلّ مسلمٍ أن يصليّ علينا مع الصّلاة على النبيّ فريضةً واجبةً وحلّ الله تعالى حمس الغنيمّة لرسوله وأوجباً له في كتابه وأوجب لنا من ذلك ما أوجب له وحرّم عليه الصدقة وحرّمها علينا معه فأدخلنا وله الحمد فيما أدخل فيه نبيّه وأخرجنا ونزّهنا ممّا أخرج منه ونزّهه عنه كرامةً أكرّمنا الله عزّوجلّ بها وفضيلةً فضّلنا بها على سائر العباد فقال الله تعالى لمحمد حين جدّه كفره أهل الكتاب وحاجّوه قتلّ تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثمّ تبتهل فنجعل لعنت الله على الكافرين» (المصدر نفسه).

فالضمائر تقف معاكسة بعضها تجاه بعض "لنا ولكم، وأوجب لنا وأوجب له، وحرّم عليه وحرّم علينا، ونزّهنا ونزّهه، وأبناءنا وأبناءكم، ونساءنا ونساءكم". كلّ هذه الضمائر المعاكسة تتجاوب دلاليّاً وتبني هياكل دلالية متشابكة تضمّن التماسك. ومن أهمّ التقنيات التي وردت بجانب اللعب الضمائري والإحالات المتكاثفة هو التكرار المكثّف في هذه الفقرة التي لا تمتد طويلاً. ف"أبناءنا وأبناءكم، ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم، وأوجبها وأوجب لنا، وحرّم عليه وحرّم علينا، ونزّهنا ونزّهه" كلّ هذه الألفاظ تتكرّر تكراراً تجاورياً ولها أثر فاعل في تأكيد المعنى في بال المتلقّي كما توسع في الإيجاءات التي تسطع عن هذه الوحدة.

٤.٦- الترادف والتكرار وفاعليتهما في خطب الإمام الحسن

تتضاءل آلية الترادف أو شبه الترادف في خطب الإمام؛ إلا أنّ ندور هذه الآلية لا ينخفض إلى درجة الصفر؛ بل هنالك ترادف استهلاكي يكثر وروده في الخطب وسمي بالاستهلاكي؛ لأنه ترادف يأتي في بداية الكلام ومستهلّه وغالباً ما يؤكّد على حمد الله حمداً متداولاً ومن نماذجه الخطبة الثانية والأربعون: «حمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال: أما بعد فإنّ الله كتب الجهاد» (المصدر نفسه، ص ٦٧).

والثناء المذكور هنا ثناء خارج نصّي يلمح إلى النص المضبوط بصورة غير مباشرة. وكان في حقيقة أمره ومن دون أن يتقنّع بأي شيء: "حمد الله والثناء عليه" ف"الحمد" و"الثناء" مؤشّران شبه مترادفان لاقتربا دلالتهما اقتراباً محكّكاً مفتولاً. وهذا التماسك من أشحب ألوان التماسك في الخطب وأكثرها فتوراً لندوره، لأنّه أصبح ضرباً من العادة، إلا أنه يساعد على إنشاء تماسك شامل بين الخطب جميعها من البداية حتى النهاية.

من النماذج الأخرى لآلية الترادف أو شبهها ما يتجلّى في الشق الأخير من الخطبة الواحدة والأربعين، إذ يقول الإمام فيها: «فلا تخالفوا أمري، ولا تردّوا على رأيي، غفر الله لي ولكم وأرشدني وإياكم لما فيه المحبة والرضا» (المصدر نفسه، ص ٦٦). يظهر شبه الترادف في هذه الوحدة عند المؤشّرين الاسميّين الأخيرين "المحبة والرضا". ولم يكن هذا الترادف ترادفاً معجمياً يطفو على سطح المعاجم والقواميس؛ بل هو ترادف وظيفي تداولي يظهر في بنية النصّ ما يسوّي بين المحبة والرضا ويجعلهما يتجاوران تجاوراً دلاليّاً سافراً. وأمّا الفاعلية الصارمة لهذه الآلية فهي تمحيض غرض الخطبة فيهما؛ فالإمام الحسن يأخذ بالنصيحة والرشاد ليمسك الناس بمحبة الله ولفت رضاه، فينسكب الغرض من إنشاء هذه الخطبة في إطار دلالي موسّع يتحدّد في كلمتين مفتاحيتين هما: المحبة والرضا.

وهنالك ترادف متدرج يبرز في مثل هذه الشريحة الدلالية: «وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله» (المصدر نفسه). فالرسول (صلى الله عليه وآله) عبد من عباد الله المخلصين، إلا أنّ القضية لا تنعكس فليس كلّ عبد رسول من الرسل؛ فالعلاقة بين العبد والرسول علاقة متدرّجة دلاليّاً؛ فالعبد الصالح الخالص يرتقي سلالم المعرفة إلى أن يصطفيه الله ويختّبه رسولاً للعالمين. وهذا الترادف كسابقه ليس ترادفاً معجمياً تعرفه كتب اللغة، بل ترادف ابتداعته العلاقات النصّية التوزيعية التجاورية. وهذه الآلية في هذه الأجواء تضمّن تماسك النصّ ضمناً متيناً عبر الدلالة التوكيدية التي تحملها فتؤكّد أنّ الرسول عبد الله ورسوله، والرسالة لا تنفي العبودية عن الأشخاص أيّاً كانوا.

أمّا التكرار فله محطة مركزية في جلّ الخطب وهو من أكثر آليات التماسك النصّي في كلام الإمام الحسن ومن نماذجه الخطبة الواحدة والأربعون: «الحمد لله كلّما حمده حامد، وأشهد أن لا إله إلا الله كلّما شهد له شاهدٌ وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله أرسله بالحقّ

بشيراً، واثمنه على الوحي» (المصدر نفسه، ص ٦٦). فالتواتر هاهنا تواتر تفسيري اشتقاقي، حيث المؤشرات "الحمد وحمده وحامد" ثمة "أشهد وشاهد وشهد" ثم "رسوله وأرسله" تنبعث من أصل واحد. وهذا التوظيف الاشتقاقي سمة مستساغة في النصّ وتؤدي إلى تناغمه وإيقاعه ما ينتج نهائياً تماسكاً في البنية السطحية.

أما البنية الدلالية لهذه التواترات فتعمل على إنشاء التماسك بالدور التفسيري الذي تلعبه. وكلّ ذلك استجلاءً لمعنى الحمد وكيفياته في الوحدة التي ضرب البحث بها مثلاً نموذجياً؛ فالحمد في حقيقته يقترن بالشهادة على وحدة الله ورسالة النبي (ﷺ). وهذا الإقرار تكتمل به منظومة الحمد. وهذا الحمد ليس حمداً اعتيادياً يجري على اللسان من دون أن يسطع عن القلب ويذوب اللباب، بل هو حمد الحامدين الذين حمدوا الله على بصيرة وهم يؤمنون بالرسول المرسل ويشهدون بأنه لا إله إلا الله. وهذه الاشتقاقات لم ترد عبثاً، بل لها دور ناضج في حقن المعنى وخلق أفضية متلاحقة على صعيد البنية السطحية.

ومن الأدوات النصية المتكررة في خطب الإمام هي حروف المشبهة بالفعل وهي تتكرر تكراراً انتشارياً تستوعب مساحة كبرى. فهي تشكل في الخطب كلها نقاطاً علائقية قائمة تحدد مسيرة التماسك في اتجاهين: البنية السطحية والبنية الدلالية ما تجعل المتلقي يعامل جميع الخطب كنصّ واحد متوحد الرؤية التي تضيفها اللسانيات الحديثة على النصّ.

ثمة التكرار الضمائري تنعكس صورته على التراكيب انعكاساً سافراً وتولد تماسكاً فاعلاً نشيطاً. وتتكرر آليات الربط ولاسيما المؤشر الحرفي "و" تكراراً من دون أن يكبح جماحه شيء؛ إذ يخلق شبكة دلالية متلاحقة يمكن أن تسمى بالشبكات الدلالية العنكبوتية. لاتضاح الأمر، يدير البحث جبهته نحو دراسة الخطبة التاسعة وثلاثين للإمام، وهي وردت في ذكر فضائل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب:

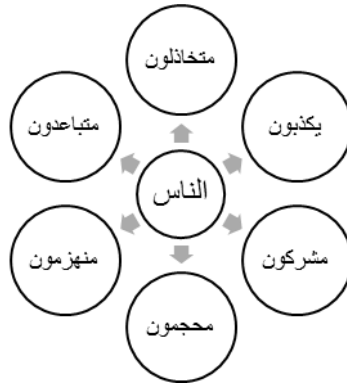
أيها الناس إنا جئناكم ندعوكم إلى الله وإلى كتابه وسنة رسوله، وإلى أفقه من تفقه من المسلمين، أعدل من تعدلون، أفضل من تفضلون، وأفى من تبايعون، من لم يعيبه القرآن، ولم تجهله السنة، ولم تقعد به السابقة إلى من قرب الله تعالى ورسوله قرابتين قرابة الدين وقرابة الرحم، إلى من سبق الناس إلى كلّ مأثرة، إلى من كفى الله به ورسوله والناس متخاذلون، فقرب منه وهم متباعدون، وصلى معه وهم مشركون، قاتل معه وهم منهزمون، وبارز معهم وهم مُجمعون، وصدقه وهم يكذبون، إلى من ترد له ولا تكافأ له سابقة، ويسألكم النصر، ويدعوكم إلى الحق... (المصدر نفسه، ص ٦٣).

فالمؤشر الحرفي "الواو" في هذه الخطبة يزداد تواتره عن عشرين. وهذا التزاحم لا يشكل عبثية لغوية؛ بل يمنح للقارئ فرصة لإدراك مدى ترابط أجزاء النصّ، وهو خيط تواصلية يربط مفاصل النصّ بعضها ببعض. وهذه الكمية الجديرة تعلق الرؤية الشاملة للنصّ.

أما التكرار الضمائري فيتوزع في أحشاء النصّ توزيعاً انتشارياً. والضمائر الموظفة هي الضمائر الخارجية أي هي ضمائر الخطاب في الغالب: "جئناكم، وندعوكم، ويسألكم، ويدعوكم، ويأمركم، ورحمكم". ولم تكن هذه الضمائر كومة مكثفة، بل انتشرت على سطح النصّ. ولن تنعدم الضمائر الداخلية أي الغائبة في هذه الخطبة، بل تحضر في الخطبة متعاقبة للضمائر الخارجية: "رسوله، وهم، وتنصروه، وتؤازروه، وأصحابه، وعماله، وانتبهوا، ويكذبون، ومشركون، واشخصوا إليه، و...".

وكلّ هذه التواترات تدعم الدلالة المركزية التي ابتدأ بها الكلام من الدعوة إلى الله وكتابه وسنة رسوله. ومشهد الخطبة مشهد حوار يعمق دون نُعاس المخاطب وتشريد باله. وهذا الأسلوب يتفاعل مع المخاطب تفاعلاً ناشطاً دؤوباً ولا تتم فيه عملية القراءة إلا بتضافر المتلقي في خلايا النصّ.

وهناك تكرار لطيف يتمظهر في المؤشّرات الفعلية، ألا هو التكرار الزمني الصيغي في الأفعال هذه؛ إذ هي تتراوح بين الماضي والحاضر ما يسبب إيقاعاً لامرئياً يُحرّك رغبة المخاطب على استمرار العملية التواصلية. ثمّة التكرار يندمج وحلقة شبه المترادفات التي رصفت الصفات ارتصافاً منضداً. وليس هذه ترادفات معجمية، بل هي ترادفات تداولية انضمت في هذه الخطبة لتبوح بالمقصدية التي توجه إليها الإمام الحسن. ف"متخاذل = متباعد" و"مشركون = منهزمون" و"مكذبون = يكذبون" ترادفات معجمية تتمحور حول الناس الذين تحاذلوا وابتعدوا عن الدين والرضوخ تحت الإسلام المبين. وتحاذلهم وابتعادهم نشأ عن شركهم بالله العظيم؛ فهؤلاء المشركون انهزموا في محاربتهم الله ورسوله، وهم مكذبون بيوم الحساب. وهذه صفات تنظّم حقلاً دلاليّاً يتجسّد في الخطاطة التالية:



فهذه الإحالات الدلالية التي تمّت عبر ارتصاف الصفات المترادفة أضحت ملتقى الاهتمام في هذه الدراسة؛ إذ أثرت تأثيراً لا نكران له على تماسك النصّ.

٥-٦. العدول وفاعليته في خطب الإمام الحسن

يعدّ العدول عن الأصل أي الانزياح التركيبي من التقنيات الفاعلة التي تعمل على بناء التماسك في النصّ. وهي لن تعرض عرضاً محدداً، بل تواترت وتوزعت إلى أن اعتبرت ظاهرة لغوية محترمة، وهي تحطّم الرقم القياسي قياساً لسائر التقنيات الشهيرة ويصطدم الدارس في محيّم العدول بكمية كبرى من الأساليب منها: الحذف، والتأخير والتقديم المكاني في الجمل اسمية كانت أو فعلية، ثمّ التأرجحات الزمنية والاستبدالات الدلالية وحتى التكرار. وكلّ ما يطرأ على النصّ سمة مميزة يدخل في نطاق العدول؛ لأنّ هذه السمات المميزة تحرق الرتبة التي تأتي النصّ.

ولمعالجة العدول واستبصار ملامحه وكيّفياته، يدرس البحث الخطبة الثامنة عشرة من خطب الإمام الحسن، والتي ألقيت لتبين الأحداث التي وقعت بعد النبي (صلى الله عليه وآله). من أبرز الأساليب المنزاحة في الخطبة هذه هو الحذف: «الحمد لله العزيز الجبار، الواحد القهار، الكبير المتعال» (المصدر نفسه، ص ٣٧).

بادي الرأي، يبدو أنّ الحذف يوسّع الفراغات النصية ويفكك النص ويبعث دلالاته إلا أنّ ما تظنّ به الظنون لا يحدث في الحقيقة، بل الحذف تقرب من الدلالات وتحوك نسيجاً دلاليّاً متلاحماً من غير نقص، وهو يتكفّل بتضافر البنيات اللغوية والنوات الدلالية. أمّا الحذف في هذه الوحدة فيتجسّد في حذف الموصوف حذفاً قرائنياً؛ فالله في بداية هذه الوحدة هو الموصوف ثم الصفات تليه من دون أن يرد الموصوف مراراً، لكنّه يتواجد في البنية التحتية للوحدة هذه: "الله الواحد، والله القهار، والله الكبير، والله المتعال". والحذف في هذه الوحدة ليس حذفاً استنباطياً، بل هو حذف قرائني، حيث تبوح به القرينة اللفظية أي الموصوف المذكور وهو "الله". ويشكّل هذا الحذف إحالة اسمية لجميع هذه الأوصاف على أنها جميعاً تعود إلى المؤشّر الاسمي "الله".

وحذف الموصوف لتضخيم الصفة المعنوية، وهي آلية يولد إثرها التوكيد الدلالي. وهناك حذف استبدالي يظهر بشكل سافر عند استخدام ظاهرة العطف ولاسيما العطف ب"الواو". وهذه التقنية لها يد طولى في الخطب جميعاً ولا تشكل هذه الخطبة استثناء؛ إذ بصمات العطف بالواو تملو على شاشة النص: «فعليكم عبد الله بتقوى الله وطاعته والجدّ والصبر، والاستعانة بالله، والخشوف إلى ما دعاكم إليه أمير المؤمنين عصمنا الله وإياكم بما عصم به أوليائه وأهل طاعته وأهملنا وإياكم تقواه، وأعاننا وإياكم على جهاد أعدائه، وأستغفر الله العظيم لي ولكم» (المصدر نفسه، ص ٣٥).

نعتبر هذه التقنية حذفاً استبدالياً لا استبدالاً محضاً؛ لأنه لا بأس باستحضار الواو والمؤشّر المحذوف متزامناً فيمكن القول: «فعليكم بتقوى الله وعليكم بطاعته وعليكم بالجدّ وعليكم بالصبر» (المصدر نفسه). فلا تكون الواو مبدلة نهائية للمؤشّر المحذوف مع أنها تدلّ على المؤشّر آونة حذفه وتواتر هذا المؤشّر الرابط في هذه الوحدة توجيهاً ودعماً للمقصدية المرنوّ إليها، وهو الإبلاغ الديني والتوجيه النفسي إلى التمسك بالتقوى والجدّ والاصطبار والحيلولة دون الزعزعات النفسية.

ومن الحذوف التي شهدت لنفسها حضوراً في ساحة النصّ وواكبت الحذوف الاستبدالية هو الحذف النحوي المتجلى فيما يمثّل الوحدات التالية: «أشهد أن لا إله إلا الله. وحده لا شريك له» (المصدر نفسه، ص ٣٤). في هذه الوحدة حذف الكينون اللغوي "موجود" حذف نحوي معهود على أنه خبر ل"لا" النافية للجنس، وهو دالّ على الوجود المطلق. والحق أنّ بلاغة الحذف في هذه الوحدة بلاغة مضمحلّة، وذلك لأجل التقنين النحوي الذي سكبت فيه والاستحضار المؤشّر "موجود" يؤدّي إلى ثلثة قواعدية في النصّ وما يكسر نطاق الدستور النحوي يبتعد عن البلاغة التي يعينها البحث هذا، إلا أنه لا شك أنّ الحذف القواعدي أيضاً يعمل - عن لاوعي - على إنشاء التماسك في النصّ بدرجة خافضة.

ومن أبرز مظاهر العُدول النصّي هو "التقديم والتأخير" أو ما تطلق عليه التآرجحات النصية. وفي كثير من الأحيان هذه التآرجحات تتلبس بأساليب تركيبية خاصّة؛ فمن هذه الأساليب المتواجدة في هذه الخطبة هو أسلوب الحصر ب"إلا" المتجلى في الوحدة: «فإني لا أقول لكم إلا ما تعرفون» (المصدر نفسه). هذا ما ظهر على البنية السطحية؛ أمّا البنية التحتية فتتخلّى عن "لا + إلا" وتصبح «أقول لكم ما تعرفون».

فهذه الانزياحية التي تعوم على السطح لها فاعلية قائمة في حقن المعنى التوكيدي في البنية الدلالية. فهذه الوحدة تؤكّد على أنّ الكلام كلام مكرّر معهود؛ إلا أنّ المخاطب ابتعد عنه وولّى عنه أدباره. فتعتبر هذه الوحدة وحدة تذكارية تستعيد الحقّ المنسي في الذاكرة. والملاحظ أنّ هذه الوحدة تستبطن انزياحاً آخر هو حذف المفعول به المتعلّق بالمؤشّر الفعلي "تعرفون"، والأصل فيه "تعرفونه". والغاية من هذا الحذف هو التوسيع الدلالي، لأنّ حذف الضمير هو حذف الإحالة المضبوطة. وعندما نحذفت المرجعية

الصريحة وطفحت اللامرعية على السطح تساوي حينئذ هذه اللامرعية بالمرعية اللانهائية فيفترض كل من يلتقط هذه الرسالة مرجعية ترتبط بالأجواء النفسية التي يعيشها تلك الآونة. وهذا الأمر يجعل المعاني المحتملة تتوسع توسيعاً لا نهائياً. ومن النماذج الأخرى للتأرجحات التركيبية المتجلية في التقديم والتأخير وتوسيط أسلوب الشرط هي: «وإن كان في عاجل ذلك ما تكروهون» (المصدر نفسه). والأصل فيه: "وإن كان ما تكروهون في عاجل ذلك". وهذا التقديم يؤكد على المؤشر المتقدم ويكثف دلالاته وله دور تشجيعي، حيث يشجع المخاطب على الجهاد في سبيل الله وإن كان مكروهاً لديه. وتلتحق بهذه الوحدة وحدة تفسر السابقة وتكون في تقابل معها تقابلاً دلاليًا: «فإن في آجله ما تحبون» (المصدر نفسه). فهذه الوحدة تتجاوب مع الوحدة السابقة وتتجاوز معها فكأنه سأل: كيف نقدم على الجهاد ونحن كارهين له؟ فيجاب عليه: فإن في آجله ما تحبون. وهذا الانزياح تتفاعل فيه الدلالات الزمنية بنشاط؛ فالعاجل هو الحاضر المرير الذي يفر منه الإنسان فرار الحمر المستنفرة فرت من قسورة؛ والأجل هو المستقبل الحلو وجنة الخلد والنصر والفتح. وكل هذه التأرجحات تخلق من النص نسيجاً متماسكاً متلاحماً على جناحي الإيحاء والتركيب.

الخاتمة

يستخلص البحث من هذه الدراسة إلى نتائج أهمها:

- آليات التماسك النحوي التي تعمل على خلق الوحدة في الخطب المدروسة لا يحدها حد؛ بل هي آليات شتى. فينتشر الاختصاص كآلية يقظة في خطب الامام الحسن ويتم التماسك به عبر المؤشرات الحرفية والفعلية في نحو "كان" و"عن" و"لا" التي تصنع عاموداً أساسياً وهيكلًا عظيمًا يتكئ النص عليها، وهي كالعقد الفريد الذي ينتمي إليه جميع الدلالات. وهذه التقنية تمهد أرضية مناسبة للولوج في قضية التوحيد وتبينها كمقصدية لبقة والنداء يتمكن من أن يخلق فضاءً دلاليًا عنقودياً في النص؛

- أكثر أساليب الافتقار تواتراً هو توظيف أدوات العاطفة. وهنالك اللعب الضمائري الذي يمثل بدوره على خشبة النص عبر صنعة الالتفات ليولد تماسكاً رائعاً. أما افتقار الموصول بالصلة فلم يستطع أن يؤكد لنفسه حضوراً قائماً. فشأنه شأن سائر المفردات؛ إلا أنه يرتبط بحساسية فائقة بالموقف الذي يختص برفع التهم. والتناص القرآني يصبح مفتاحاً لتوظيف الافتقار. وهنالك يتزاحم التقابل اللغوي والتقابلات الدلالية وهي تغاير التقابلات المعجمية في أحيان كثيرة لتبني تقابلات داخل نصية تتعلق بفضاء النص؛

- والترادفات التي تتكاتف وتتعاقد لتخلق نصاً متماسكاً هي الترادفات المعجمية والترادفات المتردجة. والتكرار هو من أبرز آليات التماسك في خطب الإمام. ومن أطف التكرارات التي لا تظهر جلياً لكن تعمل بشكل حاسم على إنشاء التماسك في النص هو التكرار الزمني الذي يتم عبر تواتر الصيغ الفعلية. والحذف الاستبدالي يقرب من الشرائح الدلالية بعضها من بعض ثم الحذف النحوية؛ ولم تكن هذه الفجوات التي بنتها الحذوف مقراضاً يقص انسجام النص؛ بل هي تخلق خلايا للترويح عن النفس في عملية التواصل وتسريع لقط المعاني المقصودة؛

- الخطب في هذه الرؤية تشكل نصاً موحداً من غير انفكاك. والغاية من هذا النص المفتوح هو إشاعة التوحيد الذي لا تشوبه شائبة بين شرائح الناس وحثهم على التحلي بالخلق الكريم واليقظة والاستبصار؛ فالفكرة التي توحى بها هذه الخطب ليست مفككة العرى، بل تشكل رسالة سميكة لا انفصام لعرها.



المصادر والمراجع

أ - العربية

١. بخولة، بن الدين. (٢٠١٦م). *الاسهامات النصّية في التراث العربي*. أطروحة مقدّمة لنيل درجة الدكتوراه. علوم في اللسانيات النصّية. الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية. جامعة وهران أحمد بن بلة.
٢. بوهادي، عابد. (٢٠١٣م). «أثر النحو في تماسك النص». *مجلة دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية*. الجامعة الأردنية. المجلد ٤٠. العدد ١. صص ٦٥ - ٥٤.
٣. الحدراوي، إيناس عبد براك بشان. (٢٠٠٧م). *أثر القرائن العلائقية في اتّساق النصّ في نهج البلاغة، خطب الحروب نموذجاً*. كربلاء: العتبة الحسينية المقدسة - مؤسسة علوم نهج البلاغة.
٤. حديد، سمية؛ ومريم بوشمال. (٢٠١١م). *الانسجام الدلالي في سورة مريم*. مذكرة معدّة استكمالاً لمتطلبات نيل شهادة الماجستير. الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية. جامعة منتوري. قسنطينة.
٥. خطابي، محمد. (١٩٩١م). *لسانيات النص: مدخل إلى انسجام الخطاب*. بيروت: المركز الثقافي العربي.
٦. صوالحية، كريمة. (٢٠١١م). *التماسك النصي في ديوان أغاني الحياة لأبي القاسم الشابي - دراسة أسلوبية*. بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية. الإشراف: عبد السلام ضيف.
٧. عبد الكريم، جمعان. (٢٠٠٧م). «مفهوم التماسك وأهميته في الدراسات النصّية». *مجلة علامات*. ج ٦١.
٨. عفيفي، أحمد. (٢٠٠١م). *نحو النصّ: اتجاه جديد في الدرس النحوي*. القاهرة: مكتبة زهراء الشرق.
٩. علاوي، العيد. (٢٠١١م). «التماسك النحوي أشكاله وآلياته: دراسة تطبيقية لنماذج من شعر محمد العيد آل خليفة». *مجلة القراءات*. مخبر وحدة التكوين والبحث في نظريات القراءة ومناهجها. جامعة بسكرة.
١٠. الموسوي، السيد مصطفى. (١٩٧٥م). *الروائع المختارة من خطب الإمام الحسن (عليه السلام)*. (مراجعة وتعليق السيد مرتضى الرضوي). بيروت: دار المعلم للطباعة.
١١. الوداعي، عيسى جواد محمد فضل. (٢٠٠٥م). *التماسك النصّية (دراسة تطبيقية في نهج البلاغة)*. قدّمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها. كليّة الدّراسات العليا الجامعة الأردنية.

ب - المواقع الإلكترونية:

١٢. ليلي، سهل. (بلا تا). *الترايط النصي على مستوى عالم النص من خلال "فلسفة الثعبان المقدس" لأبي القاسم الشابي*.
<http://www.dspace.univ-biskra.dz:8080/jspui/handle/123456789/3712>
١٣. *جمعية الترجمة العربية وحوار الثقافات*.
https://www.atida.org/index.php?option=com_content&view=article&id
١٤. *جامعة البتراء*. قسم اللغة الإنجليزية. سيرة الدكتور عمر عطاري

<https://www.uop.edu.jo>

١٥. *السيرة الذاتية لعبد القادر قنيني*.

<https://www.goodreads.com/author/show/6548292>